رحلة الى ايران

(٢)

٦ قراتو او قريتو

بين بغداد وهذه المحطة ١٣٠ ميلاً وهي على نهر يعرف بهذا الاسم وقد اتخذتها الحملة العراقية البريطانية المقر الامامي لحملة ايران . بلغتُ هـذا المقام في غسقِ الليل فرأيت خياماً مضروبة يتخللها انوار المصابيح فعلمتُ انَّ هناك معسكراً للجيش المرابط على عدوتي النهر وقد قيل لي ان النهر يعدُّ في تلك النقطة الحد الطبيعي الفاصل بين العراق وبلاد فارس فالضفة اليمنى منهُ للعراق واليسرى لايران . وقد قال المسيو دي مورغان في كتابهِ عن فارس في الصحيفة الـ ١٥٠ من الكتاب الرابع «ان على ضفاف هذا النهر كانت بعض ينابيع النفط منذ زمان بعيد وكان الكلدانيون يستخرجونهُ منها وينقلونهُ الى حواضرهم . ولم تزل تظهر هذه الينابيع الى اليوم ولكن لا ينتفع بها كثيراً » . اه

وقد اشتغلت الشركة الانكليزية الفارسية في استخراج الزيت الحجري (البترول) من ينابيع هذه الارجاء الاَّ انها فضلت اخيراً ان تتخذ مقر اعمالها عبادان فنجحت نجاحاً باهراً . ولم تترك بناتاً الاعمال في ضواحي قصر شيرين بل ان ينبوع الزيت الحجري هناك تحت مشارفها وربما رجعت اليهِ يوماً وانتفعت بهذا السائل الثمين الذي تجري عليهِ المناقشات بين الدول ويهتم بهِ الاقتصاديون ويكتبون عنهُ الفصول المستفيضة

بقيت الى ظهر اليوم العاشر من الشهر في هذا المقام نزيلاً في مطعم عسكري وبرفقتي الكولونيل نيقولا كولونوفتيكوف الروسي قومندان السيارات الناقلة في الجيش الروسي في تفليس الذي هرب من قسوة البولشفيك ونزل العراق بعد ان دالت دولة القيصر نيقولا لانهُ كان من صلب الحزب الملكي فاتخذتهُ مديراً لمصلحة السيارات التي انشأتها في طهران . وفي الليلة الاولى من وصولنا الى قراتو جاء لزيارتنا بعض الضباط الروس الذين تهتم الحكومة البريطانية بامر سفرهم الى اوربا وكان بينهم واحد من اللائذين بحماها مؤخراً من مظالم البولشفيك .

فحدثنا عن فظائع هذه الفئة ما يفتت الاكباد ويجري الدموع . وقال بعد ان لجوا في الغواية وارتكبوا كل محظور ومنكر اضطروا الى تخفيف غلواء مظالمهم وتقويم بعض اعوجاج مبادئهم ترويجاً لدعوتهم التي انكشف امرها وظهر فسادها

٧ قصر شيرين

في اليوم التاسع من كانون الثاني (يناير) وغبتُ في زيارة بلدة قصر شيرين التي كانت تبعد عن مثواي بضعة اميال فقط . فركبت سيارتي وبعد نصف ساعة وتيف دخلتها . وشاهدتُ آثار الصرح القديم ! صرح حظية كسرى أبروز ! صرح شيرين العادة الجميلة والحسناء التاريخية المخلدة الذكر في مخيلة الشعب الفارسي شيرين موضوع قصائد نظمي الشاعر الفارسي مع المثيم في هواها فرهاد

وصف جغرافيو العرب هذا الموضع وصفاً دقيقاً كأبن رسته (من القرن الثالث للهجرة) وياقوت والمستوفي . قال ياقوت قصر شيرين فيه ابنية عظيمة شاهقة يكل الطرف ويضيق الفكر عن الاحاطة بها وهي ايوانات كثيرة متصلة وخلوات وخزائن وقصور وعقود ومنزهات ومستشرفات وارزقة وميادين ومصايد وحجرات تدل على طول وقوة

وكان هذا الموضع في اول امره حديقة حيوانات أسسها كسرى ابروز (٦٢٨ — ٥٩١ م) ثم شيد القصر تلبية لطلب حظيته شيرين فنسب المكان اليها . ولكن لم يبقَ اليوم من هذا الصرح المنيف الا اطلال تنبيء بالماضيات الغابرات والخاليات البواليات

في سفح جبل زاكرس الغربي وفي اعالي وادي حلوان وفي ابواب مدينة قصر شيرين الحالية يرى المسافر آثار الساسانيين وهي بقايا اسوار الحديقة في جنوبيها وشرقيها محفوظة حفظاً يفوق سائر الجهات فتبلغ حيناً ٦ امتار ونصف متر الا انها لا تفوق مترين بوجه عام . وكان يبلغ محيط هذه الحديقة ٦٠٠٠ قدم (١) ولم يبقَ سورها مستقيماً بل كانت فيه اعوجاجات ينخفض حيناً ويعلو آخر ويتبع بذلك حالة الارض لانه كان في الوقت عينه سوراً وسداً للماء . وفي هذه الحديقة تشاهد اليوم اطلال القصر ويطلق عليه اسم عمارة كسرى . وهو يتجه من الشرق الى الغرب كسائر ابنية ذلك العهد . وكان امامه فسحة عظيمة وبركة كبيرة من الماء طولها ٥٦٠ متراً وعرضها ٥٠ متراً وعلى كل من يمينها ويسارها

قصر». اما قصر كسرى فكان بناء طوله ٣٤٢ متراً وعرضه ١٨٧ متراً وكان موقعه قرب منتصف الحديقة. ولم تزل في ارض الحديقة بقايا جذور النخيل وشجر الرمان

بلدة قصر شيرين الحالية من املاك بلاد فارس . بناء بيوتها بالصخر والطين واغلب دورها طبقة واحدة ويبلغ عدد سكانها ٥٠٠٠ نسمة ونيفاً واكثرهم مسلمون وبينهم على الاهيون ومنهم ٥٠٠ يهودي يتكلمون الكردية والفارسية والعربية والآرامية العامية . وفيها حاكم فارسي ونائب قنصل انكليزي وممكس ومدرسة ابتدائية . وتقوم خطورة هذه البلدة بموقعها الجغرافي فانها محط قوافل المسافرين والتجارات بين العراق وايران . ونهرها نهر حلوان

٨ في جبل زاكرس — باي طاق — وطاق كره

كانت الاخبار ترد الينا عن تفاقم الثلوج وسقوطها على الطريق الممتدة من قة طاق كره حتى طهران وكان يستحيل على المسافر ان يسير في تلك الارجاء وحظرت السلطة العسكرية البريطانية المسابلة فيها الى اجل غير معلوم ربما يتمكن الالوف من العملة من تنظيفها . وفي اليوم العاشر خفت وطأة الثلوج وفي الساعة الثانية بعد الظهر استأنفنا السير في طريق كرمانشاه مع حملة البرنس فيروز . ولم نبتعد الا قليلاً حتى تعطلت احدى سيارات هذه الحملة فدعوت صاحبها البرنس « امير محتشم » ان يكون ضيفي في سيارتي فقبل دعوتي

وعلى ١٧ ميلاً من قراتو يرى المسافر سديول وهي قرية حقيرة يسكنها جيل من الايرانيين . وقد كان لهذا المكان منزلة في التاريخ القديم وفيه موضع مدينة خلمان او خامانو . وامام هذه القلعة المنيعة اقام الحصار كل من تغلتبلاصر وسرغون وسنحاريب واسور بنيبال وغيرهم من الملوك الذين اتوا من نينوى وبابل وارادوا فتح بلاد عيلام . وفي هذه الانحاء كانت مدينة حلوان التي فتحها المسلمون بقيادة جرير بن عبد الله سنة ١٩ للهجرة . وكانت كبيرة عامرة . وكان جغرافيو العرب يعدونها من بلاد العراق وان كانت من بلاد الجبال . ويظهر ان هذه البقعة غنية بالآثار القديمة والعاديات فلو نقب البحاثون هناك لعثروا على دفائن تفيد العلم

(١) هذا ما ذكره دي مورغان في كتابه اما الفنتنت كولونيل سايكس في كتابه تاريخ فارس فيذهب الى ان محيطها كان ٦٠٠٠ متر وتزول دي مورغان اثبت لان الكولونيل سايكس اعتمد على الاول فاذا ذلك الا سهو في النقل

وبعد ان قطعنا شوطاً آخر بلغنا سفح باي طاق وهو الزاكرس. ولهذه الطريق اهمية عظمى منذ الاعصر البعيدة حتى اليوم نظراً الى السياسة فهي حلقة الوصل بين بابل واكبتانا (همذان) وبين سلوقية وطيسفون وبرسبوليس. ويجدر بنا ان نقول ان هذه الطريق كانت تسمى عند العرب طريق خراسان(١). والبلاد التي سغراها كانت عندهم من اقليم الجبال(٢). وقد اصلح الروس السكة القديمة في اثناء الحرب وجعلوها صالحة للسيارات وزادها البريطانيون اتقاناً وربما انحرف كلٌّ منها عن السكة القديمة في بعض المواضع ويطلق هذا الكلام على كل الطريق الممتدة من خانقين حتى طهران وغيرها

في هذا الموقف معسكر للجيش البريطاني. وشرعنا نرقى ذلك الجبل المتصاعد ونتبع السكة الملتوية والمتعرجة حتى بلغنا ايواناً جدرانهُ من صخور كبيرة مربعة الشكل وفي بعضها نقوش في حواشيها دقيقة الصناعة الاّ انها متقطعة ويظهر ان تلك الصخور مأخوذة من بناء غير هذا القائم وكانت هناك متناسقة متتابعة. وعلى ما يظهر من النقش ويستنتج من الاساطير المتداولة على افواه القوم ان هذه الصخور ترتقي الى عهد الساسانيين ويرتئي المسيو دو مورغان ان هذه انقاضُ ابنية هيكل أقيم للاله على قارعة الطريق

اما انا فارجّح ان البناء الحالي مؤلف من انقاض ايوان ماذروستان(٣) اعرض هذا الرأي باحتراز كل الاحتراز طالباً الى علماء الآثار ان يدققوا النظر فيهِ ويظهروا نصيبهُ من الصحة

وكان الجوّ مكتنفاً بالضباب حتى كان يخيل لنا اننا على مقربة من فوهة بركان او اطمة تقذف غازات وكانت في اعالي قمم اسنادهِ اكاليل من ثلج ولم نشاهد فيهِ

(١) ان طريق خراسان العظمى كانت تمتد من شرقي بغداد الى اقصى حدود بلاد السلجوقيين ثم يستولوا وجلولاء وحلوان وتقطع بلاد الجبال (٢) اما الجبال او اقليم الجبال فكان يشمل ترمسين او كرمانشاهان وبستون وكنكور ودينور (٣) جاء في معجم البلدان ـ ماذروستا ـ موضع في طريق خراسان من بغداد على مرحلتين من حلوان نحو همذان ومنه الى مرج القلعة مرحلة فيه ايوان عظيم وبين يديه دكة عظيمة واثر بناء خراب بناه بهرام جور زعموا ان الثلج يسقط على نصفه الذي من ناحية الجبل والنصف الذي بارض العراق لا يسقط عليه ابداً. (م)

وفي اوديته شيئاً من النبات بل كان منظره كئيباً حزيناً وما فتئنا ان بلغنا قرية « طاق كره » وعلوها ٣٨٢٠ قدماً عن سطح البحر . وفيها مخيم للجيش البريطاني. وقد تأخرنا حتى جزنا تلك الاسناد وكانت الشمس قد آذنت بالمغيب ولم نبتعد كثيراً عن طاق كره حتى ظهر لنا مشهد فتان لم يتعودهُ سكان البلاد الحارة الاَّ وهو منظر الجبال والاودية والهضاب المسجاة بكفن الثلج ولم تتمكن من مواصلة سيرنا في ذلك الليل بل حططنا رحالنا في قرية سرخديزة وهي قرية فارسية بينها وبين قريتو ٣٤ ميلاً وبينها وبين كرمانشاه ٧٨ ميلاً

٩ ليلة في سرخديزة

اصف لك ايها القارىء هذه الليلة لتعلم ما يعاني المسافر في تلك الاصقاع من التعب والجهد وما يكابد من المشاق والمصاعب لقلة معدّات الراحة لا بل لفقدان حاجيات العيش كالمأوى وغيره . القينا رحلنا في هذه القرية وكانت ليلة قرّ ترتعد الفرائص من بردها . فقلنا المبيت هنا اولى من التوغل في دامس الظلام في اراض تتلاطم فيها امواج الثلوج والاوحال لاسيما وانّا برفقة امراء البلاد تتمكن بوساطتهم من ادراك ما يعزّ ادراكهُ علينا لو كنا بمعزل عنهم . وما كانت آمالنا الاَّ برقاً خلباً فاحسن مثوى وجدناهُ دار قهوة حقيرة مبنية بالصخر والطين سقفها من خشب البلوط وفي اطرافها ووسطها دكات من الطين وفي طرف منها موقد القهوة . وفي ارضها اخدود مكمنهُ نحو متر لوقود النار . فما استقرّ بنا المقام الاَّ وقرسنا البردُ فأتي بخشب البلوط واحرق في ذلك الاخدود ولم يكن للدخان منفذ فتكاثف في فضاء الغرفة وكاد يكون حاجزاً منيعاً بين الصديق وصديقهِ وانحدرت الدموع من المحاجر ليس من حزن وسوان ولا من حرقة وتوبة لله بل مما كانت تفعلهُ المادة في المادة ومن مؤثرات الكربون في مجاري الدموع والتنفس وكانت تتفاقم هذه الحال . ومما زاد في الطين بلةً الدخان المتصاعد من سيلان(١) الافيون وتدخين هذه المادة كثير الشيوع في بلاد فارس فنمت اغباش ذلك الليل مكرهاً مترنحاً وانا اكرر قول الاعرابي : ليلة هي يا مكاري

بغداد يوسف رزق الله غنيمه

(١) سيلان ج سير وهو القليون في اصطلاح العراقيين